الأَديبْ و المُفكِّرْ الرَّاحِل

رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاوَنْد

عمالقة في التاريخ

# عبد الله بن الزبير

التاريخ لا يحابي أحداً من الناس ... وقائعه هي التي توزع الخطوط وتصنف الرجال والنساء ... منهم من يكتب له أن تدفع به الوقائع إلى القمة ، ومنهم من تهبط به إلى الحضيض ... والعبقرية والكفاءة ليستا وقفاً على من تدفع به الوقائع إلى القمة ... بل قد تكونان أكثر خصوبة وأوسع أفقاً عند بعض من تهبط به الوقائع إلى الحضيض.

التاريخ قد يقتصر في سجلاته على التنويه بذوي الخطوط الطيبة من الرجال والنساء ... لكن التاريخ ضيق الأفق فهو لا يرى إلا من يقدر لهم بلوغ القمة ثم لا يرى غير هؤلاء ومن ثم لا يتحدث إلا قليلاً وقد لا يتحدث أبداً عن غيرهم من الناس.

إن أرحام الأمهات في كل أمة من الأمم تخرج إلى الدنيا الآلآف بل عشرات الآلآف من أصحاب القلوب الكبيرة والعقول النيرة والشجاعة الفائقة لكن " سيناريو " الأقدار التي نجهل الكثير من أسرارها لا تخرج إلى النور من هذه الجماهير الذكية إلا بقدر معلوم . أما السبب فهو مجهول ...

**********

وقد يكتب في سجل التاريخ لو أحد من العباقرة العماليق أن يلعب دوراً معيناً لكن الأقدار لا تلبث أن تختطفه فيغادر دنيا الناس ولما يمض على ظهور براعمه غير وقت قصير . لكن الأبدل المبكر لهذه البراعم ، وخروج صاحبها السريع من مسرح الحياة والأحياء لا يحولان دون أن تبرق بارقة العبقرية وأن ترتسم أثارها في قولب الملايين وعقولهم.

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سـيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

ورجلنا اليوم واحد من هؤلاء الذين لم يبلغوا القمة إلا بعد سنوات طويلة جداً من الكفاح المستمر الحافل بالرجولة والسماحة والشجاعة في المواقف والورع في الدين والحدة في الذكاء والبعد في الطموح.

خرج إلى الدنيا في العام الأول من هجرة النبي المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة ... أبوه حواري رسول الله ... وأمه أسماء ذات النطاقين وجده لأمه أبو بكر الصديق ... وجدته لأبيه صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول عليه السلام ... وخالته أحب أمهات المؤمنين إلى حبيب الله ... وعمة أبيه أم المؤمنين الأولى خديجة بنت خويلد.

**********

إنه عبد الله بن الزبير الذي بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن سبع أو ثماني سنوات ... تميز منذ طفولته الأولى وصباه بالجرأة وقوة المعارضة . كان يميل منذ يفاعته إلى لعب دور الأمير مع لداته من الصبيان ... مر به عمر بن الخطاب وهو أمير المؤمنين الذين انتشروا فاتحين في طول الأرض وعرضها وهو في جماعة من لداته من صبيان الحي ففر الصبيان رهبة من الرجل الذي كان يهابه كبار الناس أما هو فلم يفر ولم يرم من مكانه . قال له عمر : " ما لك لم تفر مع أصحابك ؟". فقال : " يا أمير المؤمنين ! لم أذنب فاخافك، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع لك .".

ولا عجب في ذلك فقد ربي في بيت كريم الأباء والأمهات والعمات والخالات ... ونشأ في البيئة الكفيلة بأن تجعل منه البطل المسدد، والذكي الألمعي ، والتقي الورع ، والطموح الذي لا يقف دون تحقيق طموحه شيء غير الموت تحت ظلال السيوف .

**********

كان لا يزال مراهقاً لما يجاوز عامه الخامس عشر حين اشترك في معركة اليرموك الفاصلة ... ورافق عمرو بن العاص في فتح مصر وكان شاهداً على وثيقة الصلح التي أبرمت بين المسلمين وبين أهل مصر سنة عشرين للهجرة. ثم شهد مع عمرو بن العاص فتح ليبيا حتى إذا وصل الجيش العربي الإسلامي إلى طرابلس الغرب ، انتدبه قائد الجيش على رأس كتيبة من الجند لفتح مدينة صراته فاقتحمها مع أخوانه من الجنود بالقوة فاستسلمت ولم يهرب من أهلها الا من كتبت له النجاة بالهرب بحراً إلى جزيرة صقلية . وفي أيام الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان شهد فتح أفريقية بقيادة أمير مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح ثم استقل بفتح مدينة سوسة التونسية بعد أن سجل بحسن تدبيره انتصار جيش عبد الله بن سعد على حاكم افريقية " تونس "

البيزنطي جرجير . وارتد بعد ذلك إلى بلاد الشام ليرافق الجيش الأموي إلى القسطنطينية في عهد معاوية بن أبي سفيان عام تسع وأربعين أو خمسين للهجرة . واشترك قبل ذلك في معركة الجمل طاعة منه لأبيه الزبير بن العوام وخالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما ثم امتنع عن الاشتراك في معركة صفين كما امتنع كثير من الصحابة عن الإشتراك فيها لأن وجه الحق في هذه المعركة لم يبن لهم .. ولما كان بطبيعته من أنصار الشرعية فقد وقف إلى جانب عثمان بن عفان رضي الله عنه حين حمل الثوار على هذا الخليفة في داره . فكان يقاتل بالصامدين من أقرانه أولئك الخارجين على الشرعية فجرح بضعة عشر جرحاً غائرة . فعل ذلك لأنه كان يدين بالطاعة للخليفة القائم ما دام هذا الخليفة على الحق في تقريره . وكان يرفض مشاركة أهل الفتن في أثارتها بقلبه أو لسانه أو سيفه.

وعندما استتب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان بايعه بعد انتهاء الفتنة الكبرى وعودة الوحدة الشاملة إلى صفوف المسلمين.

**********

وطبيعي أن معاويه كان يقدره حق قدره فاذا لقيه بادره مرحبا وقائلاً : " أهلا يا بن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم " ثم يأمر له بمائة ألف . فاذا عوتب معاوية من مثل وان من الحكم على تقريبه له قال : " نفس عصام سودت عصاما . " ومع ذلك فعبد الله بن الزبير لم يكن يخضع لمعاوية خضوع الذلة والمهانة بل كان يعارضه ويرد عليه رداً غير جميل حين يصدر عنه ما لا يرضاه لدينه وللناس . وبلغ من شدته على معاوية الذي دانت له البلاد والعباد بالطاعة أنه نازع مروان بن الحكم بين يدي معاوية الذي انحاز إلى مروان فقال له : " يا أمير المؤمنين ! أن لك حقاً وطاعة ، فأطع الله نطعك ، فانه لا طاعة لك علينا إلا في حق الله عز وجل .".

**********

وبقي عبد الله بن الزبير على الطاعة لمعاوية حتى أقدم هذا الأخير على فعل ما أغضبه وأغضب أعيان المدينة من الرجال وفي مقدمتهم عبد الرحمن بن أبي بكر والحسين بن علي بن أبي طالب وعبد الله بن عمر وابن عباس رضي الله عنهم . لقد أرادهم معاوية كما أراد الأمة كلها على البيعة لإبنه يزيد عام ٥٦ هـ.

وأدرك معاوية أن عبد الله بن الزبير مفتاح المدينة المنورة والرجل الذي يقود الأربعة الباقين الرافضين للبيعة فالتقاهم لاقناعهم بالموافقة على رغبته في البيعة لابنه يزيد وكان الرجال الأربعة قد جعلوا ابن الزبير المخاطب لمعاوية عنهم. قال معاوية تكريماً وترغيباً

لهم : " قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأرحامكم ، وحملي ما كان منكم ، ويزيد أخوكم وابن عمكم، وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه لا يعارضكم في شيئ من ذلك ..." فسكتوا فقال : " ألا تجيبون ؟ " مرتين . ثم أقبل على ابن الزبير فقال : " هات ! لعمري أنك خطيبهم "، قال عبد الله : " نخيرك بين ثلاث خصال " فقال : " أعرضهن " ، قال : " تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كما صنع أبوبكر أو كما صنع عمر ." فقال معاوية : " ما صنعوا ؟" فقال : " قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يستخلف أحداً ، فارتضى الناس أبا بكر "، فقال : " ليس فيكم مثل أبي بكر ، وأخاف الاختلاف " فقال : " فاصنع كما صنع أبو بكر ، فانه عهد إلي رجل من قاصية قريش ليس من بن أبيه ، فاستخلفه ، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر : جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه".

وهنا هدد معاوية وتوعد بقتلهم أن هم ردوا عليه حين يكلم الناس في البيعة لابنه يزيد .

**********

وامتنع عبد الله بن الزبير عن بيعة يزيد وتحول إلى مكة وعاد بالحرم . لكن معاوية بقي على حذر منه فقال يوماً لولده يزيد : " إني مهدت لك الأمور ولم يبق أحد لم يبايعك غير هؤلاء الأربعة ، فأما عبد الرحمن بن أبي بكر فرجل كبير نهايته اليوم أو غداً ، وأما ابن عمر فرجل غلب عليه الورع ، وأما الحسين فله قرابة فان ظفرت به فاصفح عنه ، وأما ابن الزبير فان ظفرت به فقطعه أرباً أرباً .".

وتوفي معاوية في العام الستين من الهجرة وبقي ابن الزبير بمكة ممتنعاً عن الدخول في طاعة يزيد بن معاوية .".

والواقع أن معاوية كان من أعلم الناس بالرجال . ظهر ذلك في توصيته لابنه يزيد وتحليله لشخصية كل واحد من المعارضين له .

**********

وبعد أن قدم ابن الزبير مكة بادر إلى تحريض الناس على بني أمية غير مبال بالنتائج التي قد تترتب على معارضته لخلافة يزيد . وركب يزيد رأسه بعد أن قتل الحسين رضي الله عنه في كربلاء . وأقسم لا يرضى عن ابن الزبير حتى يحمل إليه في جامعة " مغلول اليدين إلى عنقه " وانقطع آخر خيط بين الرجلين حين رفض ابن الزبير أن يوافق على حمله إلى يزيد مغلول اليدين إلى

عنقه في جامعة . وبويع لأبن الزبير بالخلافة وتسمى باسم أمير المؤمنين وأصبح للمسلمين خليفتان أحدهما في دمشق وثانيهما في مكة حيث وفدت الوفود إلى ابن الزبير تعلن تأييدها له وتبايعه على الخلافة " .

ولا عجب في ذلك فالحجاز واليمن لم يرضيا يوماً عن انتقال الخلافة إلى أهل الشام حتى إذا جاءت الفرصة المناسبة أقبل الناس فيهما على مبايعة ابن الزبير رغبة منهم في استبقاء عن الخلافة عندهم هذا إلى جانب ايمانهم بأن ابن الزبير أحق بأمرة المؤمنين من يزيد ومن مروان بن الحكم الذي ولي الخلافة من بعده عام ٦٤ للهجرة . ولم يقف سلطان ابن الزبير عند الجزيرة العربية فقط بل دانت له مصر والعراقان وخراسان وأكثر بلاد السند وبعض بلاد الشام .

وفي أثناء ذلك بويع لمعاوية بن يزيد بالخلافة التي دامت شهرين ثم لمروان بن الحكم الذي توفي عام ٦٥ هـ وعهد بالخلافة بعده لابنه عبد الملك بن مروان الذي يعتبر المؤسس الثاني لدولة الأمويين . وتعاقبت الأيام والسنين حتى كان العام ٧٣ هـ استعاد عبد الملك فيها كل البلاد التي كانت خاضعة لابن الزبير باستثناء الحجاز . فانتدب الحجاج بن يوسف لمقاتلة ابن الزبير في مكة المكرمة . وبعد حصار دام ستة أشهر وسبعة عشر يوماً قتل ابن الزبير وانتهت ملحمة حياته كما تنتهي ملاحم كبار الرجال الذين لم يجدوا من ظروف حياتهم ما يساعدهم على تحقيق أطماحهم.

والواقع أن ابن الزبير كان في وسعه وقد ضاقت به الأرض بما رحبت وأيقن أنه لا ملجأ له بعد أن انفض الكثير من الناس من حوله أن يجد طريقه إلى السلامة وان يعقد صلحاً مع عبد الملك بن مروان يتنازل بموجبه عن سلطانه ، ولكن أبى له حسبه ، وعز عليه يقينه بأحقيته في الخلافة أن يستسلم . لقد كان له من رجولته وشجاعته ومن شجاعة أمه أسماء ذات النطاقين ما يقيه عثرة الاستسلام . يبدو ذلك في الحوار الذي جرى بينه وبين هذه الوالدة الكريمة التي أجتمعت في شخصها نخوة المرأة العربية الحرة وتقوى المسلمة التي أسلمت أمرها وأمر ولدها لله عز وجل . جاء في تاريخ كل من الطبري وتهذيب ابن عساكر وابن الأثير وغيرهم من المؤرخين ما يلي :

" دخل ابن الزبير على أمة أسماء بنت أبي بكر الصديق وقال : " يا أمه ! خذلني الناس حتى ولديّ وأهلي ، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟؟" ، فقالت: " إنت والله يا بني أعلم بنفسك ! أن كنت تعلم أنك على حق وأليه تدعو ، فامض فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك فيلعب بها غلمان بني أمية . وان كنت أنما أردت الدنيا ، فبئس العبد أنت ! أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك. وإن قلت : كنت على حق ، فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ؟ وكم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن "

، فدنا منها ابن الزبير وقبل رأسها وقال :" هذا والله رأيي ، والذي قمت به داعياً إلى يومي هذا ... ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمه ، ولكني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتني بصيرة مع بصيرتي ، فانظري يا أمه ، فإني مقتول من يومي هذا ، فلا يشتد حزنك وسلمي لأمر الله ، فإن ابنك لم يتعمد اتيان منكر ولا عملاً بفاحشة ولم يجر في حكم الله ، ولم يغدر في أمان ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغني ظلم عن عما لي فرضيت به بل أنكرته ، ولم يكن شيء أثر عندي من رضى ربي ، اللهم أني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي، أنت أعلم بي ، ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني .".

**********

وقتل ابن الزبير بعد جلال وقتال وصبر شديد وقطعت رأسه ثم صلب منكساً . ومضت سنة على صلبه بقي فيها معلقاً على خشبته حتى خرجت أمه يوماً فمرت تحته وقالت : " أما أن لهذا الراكب أن ينزل ؟". ولما كان الحجاج قد أقسم لا ينزله عن خشبته حتى تشفع به أمه ، يقال أن العبارة التي صدرت عنها وهي تمر تحته قد اعتبرها الحجاج بمثابة شفاعة منها له فأنزله. ويقال أن أمه حملته إلى المدينة المنورة أو حملت بقاياه ودفنته في دار صفية بنت حيي زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم زيدت تلك الدار في المسجد فابن الزبير مدفون في المسجد مع النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهم جميعاً .

**********

والجدير بالذكر أن ابن الزبير كان أولى من بني أمية بالخلافة بشهادة الامام مالك الذي روي عنه قوله : " ابن الزبير كان أفضل من مروان وكان أولى من مروان وابنه ". كما جاء في كتاب الاستيعاب .

والواقع أن بني أمية وجدوا عنتاً شديداً في تبرير قتلهم لهذا الرجل الكبير . ذلك أن مكة قد ارتجت بالبكاء حين علمت بقتله فاضطر الحجاج بن يوسف أن يرقى المنبر ويخطب في الناس قائلا لهم : " أيها الناس ! إن عبد الله بن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازعها أهلها وألحد في الحرم فأذاقه من عذابه الأليم ، وأن آدم كان أكرم على الله من ابن الزبير ، وكان في الجنة ، وهي أشرف من مكة فلما خالف أمر الله وأكل من الشجرة التي نهي عنها أخرجه الله من الجنة ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله .".

**********

على أن عبد الله بن الزبير لم يكن استثناء من رجال عصره . فقد ظهر في القرن الهجري الأول رجال كثيرون كانوا بمثابة القمم في أمتهم . منهم رجال اجتذبتهم السياسة وأعزتهم أمجادها بخوض المعارك الدامية سعياً إلى تحقيق أطماحهم ... ومنهم الذين صرفتهم الحماسة الدينية عن السياسة والمتسابق إلى الحكم إلى الجهاد في سبيل الله ... ومنهم من قام بالدعوة إلى الله وتذكير الناس بأيام النبوة العظيمة ... ومنهم من انصرف إلى ميدان المعرفة والاهتمام بجمع التراث النبوي الكريم وحفظ كتاب الله أن يخالطه تحريف أو تغيير ... وقد كانت حصيلة تلك الجهود الفائقة أن اللغة العربية قد أصبحت لغة الحضارة الجديدة التي زلزلت بها دنيا الحضارة القديمة وأن الاسلام أخذ ينتشر كما ينتشر الحزمة من الضياء تخترق بأشعتها المشرقين والمغربين فإذا الناس غير الناس والدنيا غير الدنيا وأصبحت كلمة الله هي العليا وكلمة شياطين الأنس والجن هي السفلى .

ومع ذلك فقد كان الرزء بقتل عبد الله بن الزبير ثقيلاً جداً سالت به دموع كثيرة ونطقت به ألسنة عديدة منها ما خرج نظماً من الشعر أو عبارات محفوظة جمعت ما تفرق من الأسى في القلوب وأعلنت ما تضمنته الاحشاء من الأسف العظيم على انتهاء ملحمة هذا الرجل العظيم حتى أن أعداءه اضطروا لأن يعترفوا له بالفضل والسابقة والإحسان.

وتعاقبت المرائي فرثاه معمر بن أبي معمر الذهلي ونعيم بن مسعود الشيباني وقيس بن الهيثم السلمي وغيرهم . ووصفه من عرفه من كبار القوم بأنه رجل دنيا ودين . وأنه جسد في شخصيته وأخلاقه مزايا العرب وفضائل الاسلام.

وقد سئل ابن عباس عنه فقال : "كان قارئاً لكتاب الله ، متبعاً لسنة رسول الله ، قانتا لله ، صائماً في الهواجر من مخافة الله، ابن حواري رسول الله ، وأمه بنت الصدّيق ، وخالته عائشة حبيبة حبيب الله وزوجة رسوله . فلا يجهل حقه إلا من عماه الله " .

أما ابن مليكة فقال للخليفة الأموي الصالح عمر بن عبد العزيز : " أن في قلبك من ابن الزبير شيئاً ولو رأيته لما رأيت مناجيا قط مثله ولا مصلياً ".

ويروي عن ابن الزبير أنه قال قبيل مقتله : " اللهم أني أحببت لقاءك فأحببت لقائي وجاهدت فيك عدوك فأثبني ثواب المجاهدين ".